قصة قصيرة

نسينا ولم تنس الجميزة

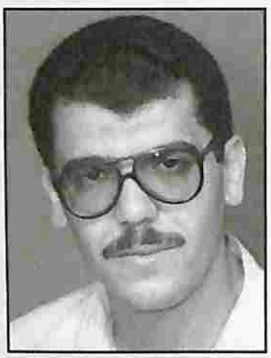

عبد الجواد الحمزاوي
مصر

كنت: وقتئذ - في نهاية المرحلة الثانوية.. نجحت بامتياز وبدأ الجميع ينادونني «يا دكتور».. ولكني لم أكن سعيدا رغم الابتسامات والضحكات التي كنت أنثرها بمناسبة وبغير مناسبة.. تسألني لماذا؟

ماذا تفعل لو أتتك أمك يوم نجاحك لتقول وعيناها مملوأتان بالدموع.. ألف مبارك يا محمد.. كانت أمنية أخيك صابر أن يراك دكتورا.. واليوم تحققت أمنيته.. ثم تبكي بدون صوت وتنزل دموعها لتغسل كل وجهها الطيب الجميل «اللهم اغفر له. اللهم ارحمه»..

هل تصدق بعد ذلك أن هذه هي دموع الفرح؟..

- لا تعلم من هو صابر؟..

- صابر يا سيدي هو أخي الذي استشهد في حرب ١٩٦٧م.. هل عرفت..

قام الدكتور محمد من على كرسيه بصعوبة، ثم تناول مفاتيحه، ونزل من منزله يحاول أن يجري والأبناء يقولون إلى أين يا أبي وهو يقول.. سآتي حالا..

ركب سيارته الفخمة وانطلق يجري في شوارع المدينة.. هناك عند بلدتهم القديمة توقف .. ترك سيارته ونزل يمشي بين الحقول حتى وصل إلى شجرة جميز ضخمة.. كان مبهور الأنفاس، يتصبب العرق من جسمه.. ألقى بنفسه على الأرض وجلس يستريح.. تظله شجرة الجميز ويدور بعينه في المكان، يسافر عبر الماضي ويبتسم.

مر به عمه فتحي.. ألقى عليه السلام بفرح .. حاول الدكتور محمد أن يقوم ولكنه لم يستطع.. كرشه الضخم يشده لأسفل ومفاصله تؤلمه.. قبل أن يحاول ثانية كان العم فتحي عنده يقبله ويقول:

- «القرية» نوَّرت.. كيف حالك وحال الأسرة الكريمة؟.. ألم تذهب لتزور أمك؟!.. لقد كنت عندها حالا، ولم تكن تعلم بأنك هنا في البلد.

كانت أم الدكتور أخف منه في استقباله .. لم تستطع السنون السبعون التي تحملها فوق ظهرها أن تمنعها من عناق ابنها الدكتور الكبير الذي استقر في طنطا، يدرِّس في جامعتها ويفتتح عيادته فيها.. تغير كثيرا.. لا تعرف كيف تغير ذلك الشاب الخفيف.. الثائر المتحمس، الذي كان يملأ الدنيا نشاطا وحركة وصار رجلا كهلا بدينا لا يستطيع أن يمشي خطوات بدون سيارته.. نعم.. هي الحياة، وهي الدنيا التي أقبلت والأموال التي تدفقت بدون حساب.. نعم.. كانت تخاف عليه يوم أن كان صغيرا من كل شيء ولكنها كانت تحبه وتحب كلامه.. تخاف عليه وتدعو عندما يتكلم عن اليهود وعن الاستعمار العالمي وتغير أساليبه في إخضاع الشعوب، وتخاف عليه من أولاد الحرام..

نعم.. صار له كرش كبير، وانحسر الشعر عن مقدم رأسه وثرك وسطه يلمع كما يريد.. لا تعرف ما هو هذا

لنقرس اللعين الذي أصابه، ولكن لا زالت روحه ولا زال كلامه كما هو..

كان حين يأتي يزورها يتحدث كثيرا عن إسرائيل وعن اليهود كلاما لم تعد تسمعه لا من المذياع ولا من التلفاز ولا من أحد ممن يحيط بها.. كانت تسعد بذلك وتخاف على ابنها الدكتور الكبير، تماما كما كانت تخاف عليه وهو صغير.. كانت تسعد به وتنتظر مجيئه ليحدثها عن قتلة الأنبياء، ويبشرها بأن الله وعد المسلمين أن يقتلوا كل يهود الأرض وينظفوا الدنيا من رجسهم يوم يتحدث كل حجر وكل شجر فيقول : «يا عبدالله، يا مسلم.. هذا يهودي ورائي، فتعال فاقتله» وحين يتركها كانت تظل أياما طويلة تسأل كل واحد ممن يزورها .. هل تزرعون الغرقد؟.. كانوا يضحكون وهي جادة تقول.. إياكم أن تزرعوا هذا الشجر فهو شجر يحب اليهود ولا يدل عليهم.

بسرعة علمت كل الأخوات وأزواجهن وأبناؤهن بقدوم الدكتور محمد، أتوا إليه جميعا فاليوم عطلة.. لم يبق غير أولئك الذين يعملون في الأرض يضمون الأرز.. عند الغداء أتت صواني تحمل بطا وأوزا وحماما من بيت عمه فتحي ومن بيوت أخواته وجلس الجميع يتحدثون ويأكلون.

قالت الأم:

– أنا أحس أننا في يوم عيد..

ضحك الجميع.. فلم يكن الدكتور محمد يأتي إلا في الأعياد.. خجل الدكتور محمد وقال:

– أنت يا أمي تعرفين الحياة ومشاغلها .. والله، أولادي أنفسهم لم يعودوا يروننني إلا قليلا.. ثم أنت التي لم تقبلي أن تأتي لتعيشي معنا في طنطا..

بعد قليل أتى الشيخ عمر أحمد.. نادى بصوته المميز الحنون.. عرفته الأم وصاحت..

– الشيخ أبو صلاح الدين يا محمد..

كان العناق الحار من الشيخ عمر، للدكتور محمد رفيق شبابه وصباه.. لم تمض سوى دقائق قليلة حتى صاح محمد بانفعال وهو يخاطب الشيخ عمر كأنما كان ينتظر قدومه ليخرج الانفعالات الحبيسة في نفسه.. صاح الدكتور محمد..

– هل تعرف لماذا أتيت اليوم يا عمر بدون أن يعرف أحد؟! .. أتيت لأزور الجميزة.

ضحك الجميع ضحكات خفيفة مستطلعة، أما الشيخ عمر فقد أطرق إلى الأرض وهو يقول:

– الجميزة.. والله كانت أياما جميلة..

استمر الدكتور محمد في كلامه.. كان يوجه حديثه للجميع .. بانفعال كان.. نسي آلامه ووقف يقول:

– هل تذكرين يا أمي يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م.. كنا أيامها في رمضان.. هل تذكرين..

قالت الأم بعد تنهيدة عميقة..

– وهل هذه أشياء تنسى يا بني..؟!

استمر الدكتور محمد في اندفاعه وتحركاته البطيئة بسبب الكرش والنقرس ليقول:

– يومها كنت صغيرا.. وكنت محبطا.. كنت يائسا.. البلد كله كان يائسا.. لا أمل.. الشباب يرى المستقبل مظلما.. لا بناء، لا زواج، كان الجميع ينتظرون عام الحسم الذي لم يأت.. والكتاب يتحدثون عن خط بارليف الذي لا يقهر..

صاحت الأم..

– ربنا كبير يا ولد..

لم يعد الدكتور محمد يقوى على الوقوف ولا المشي.. جلس فور سماعه كلمات أمه وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ثم قال بصوت عميق ضعيف أخذ يعلو رويدا.. رويدا..

– نعم يا أمي .. الله أكبر.. كانوا يقولون: إن عبور القناة مستحيل.. لأن القناة نفسها مانع صعب.. قناتنا نحن التي نحبها وتحبنا.. التي اختلط ترابها بعظام أجدادنا وعرقهم صارت عائقا يصعب عبوره.. وبعد القناة ساتر ترابي يحتاج قنبلة ذرية لنسفه، ثم خط بارليف الرهيب العجيب.. وذراع إسرائيل الطويلة وطيرانهم المخيف..

قال الشيخ عمر والدموع تملأ عينيه..

– وصحونا على نبأ جيشنا العظيم.. وخراطيم المياه التي أزالت الساتر الترابي..

قالت الأم بفخر:

– وعبد المعطي.. صياد الدبابات..

قالت الأخت الكبرى:

– وعساف باجوري في التلفزيون هو وكل الاسرائيليين أسرى مكسورين..

فجأة انطلقت الأخت الصغرى الطالبة بالمدرسة الابتدائية وهي تنشد:

الله أكبر بسم الله.. بسم الله..

سينا يا سينا .. بسم الله .. بسم الله...

جمع البغي حشوده ظن أنا ضعفاء..

دحر الله جنوده وهو أقوى الأقوياء..

صاح الدكتور محمد وهو ينظر إلى الشيخ عمر والعرق ينزل من على جبهته غزيرا..

– يومها كنت أنا وأنت وشباب البلد ننتظر الدراسة ولم نذهب إلى الجامعة.. جمعنا الشيخ محمد نور الدين..

قالت الأم:

رحمه الله، كان رجلا طيبا..

عم السكون الجميع وهم يعيدون الدعاء بخشوع في ذكرى الرجل الطيب.. لم يستطع الدكتور محمد أن يظل هكذا طويلا.. صاح..

– كان الشيخ محمد نور الدين .. يفسر لنا تحت شجرة الجميز سورة الحشر.. كان يفسر بعلم وتقوى وكنا نحبه ونفهم كلامه تماماً.. كان يقرأ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[1].

ابتسم الشيخ عمر وهو يقول:

– كما أخرج اليهود من خط بارليف الذي ظنوا أنه سيحميهم .. ولكن الله خيب ظنونهم ووفقنا لعبور القناة واقتحام خط بارليف الذي كان أسطورة.. وقذف في قلوبهم الرعب فاستسلموا.

قام الدكتور محمد بصعوبة وسار في المنزل وهو يقول: كان لا يوجه حديثه لأحد.. كان كأنما يحدث نفسه..

– والآن.. كل الدنيا تحاربنا.. وكلهم يتسابقون على نهب خيراتنا واستعمار بلادنا وإذلالنا .. العدو .. يستفزنا بكلامه وتصرفاته ولا يخفي مشاعره نحونا.. وهاهو قد افتتح النفق تحت الأقصى.. لا يعبأ بغضبنا ولا بمشاعرنا ومقدساتنا.. وأمريكا توصينا بضبط النفس.. والمفكرون لا يرون لنا مخرجا من هذا الضعف.. والشباب محبط.. أتيت هنا إلى الجميز لأتذكر كلام الشيخ محمد نور الدين.. وأقول لنفسي.. سوف يأتي اليوم الذي ينصرنا الله فيه على أعدائنا كما انتصرنا في العاشر من رمضان بشرط أن نلتجيء إليه وحده.. ■

(١) سورة الحشر ، الآية رقم٢.

يا راحلاً

محمد قبش
سوريا

يا راحلاً سكنت في وجهه الشمس
سكنت بك الدنيا والحب والأنس
حفلت بك الأيام عن أمر باريها
تتقلد الأمجاد ويطاوع القدس
ها قد قد بنيت لنا مجدا على التاريخ
يحلو به الترنيم يعلو به الجرس
نم في رحاب الله يا صاحب الأبرار
من حوض تسنيم يدنو لك الكأس